بسم الله الرحمن الرحيم

٨٥ — سورة البروج

مكية . وآيها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ)

[٢] (وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ)

[٣] (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

[٤] (قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ)

[٥] (ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ)

[٦] (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

[٧] (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

[٨] (وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

[٩] (ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور ، لعلوّها . أو البروج منازل عالية فى السماء .

قال ابن جرير[1] : وهى اثنا عشر برجاً . فسير القمر فى كل برج منها يومان وثلث فذلك ثمانية وعشرون منزلا . ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج ـ كما قال الشهاب ـ الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة (برج) أيضا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

فشبه ـ على هذا ـ الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ » أى الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسّ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها ، وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأَولى أوالأعرف والأظهر ، لقرينةٍ عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ » أى: قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هى جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لتبلون كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزمخشرىّ : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم (قتلت قريش) كما قيل (قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة. وقوله تعالى « ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ » بدل من (الأخدود)و(الوقود) بالفتح الحطب الجزل الموقد به وأما (الوقود) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أى على حافات أخدودها «قُعُودٌ» أى قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أى حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم « وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ » أى : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نقمت من الشىء ونقمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « ٱلْعَزِيزِ » أى الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « ٱلْحَمِيدِ » أى المحمود على إنعامه

وإحسانه « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شىء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفى توصيفه تعالى بما ذكر من النعوت الحسنى ، إشعار بمناط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبيده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر ، وفى الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف فى كتب المعانى .

تنبيه :

روى ابن جرير[1] عن ابن عباس فى أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالًا ونساء ، فعرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالًا ونساء فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم فى النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس ـ وتفصيل النبأ ـ على ما فى كتاب (الكنز الثمين) ـ إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العَرِيّة عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان فى مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانيًّا مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا فى تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تنصر ، بغضاً فى المسيحية وكراهة لسلطان مسيحىّ يملكهم . فأقاموا رجلًا يهوديًّا منهم عند موت ذلك السلطان أو قتله . فأشهر ذلك اليهودىّ نفسه ملكا على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

والخيانة . ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالًا ونساءً . كانت عدتهم ـ فيما يقال ـ ثلاثمائة وأربعين شهيداً. وأتى بذاك الراهب محمولا يحف به الجنود. وكان هرماً لايقوى على المشى . فسئل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام. فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على مايشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألقت امرأة بنفسها فى النار وتبعها طفل لها فى الخامسة من عمره. وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى، والفرح بالشهادة، ماأضحوا مثالًا وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعته عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لاجرم أن من تلا ماورد فى الوعد الصادق لكل مفتون فى الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أراثا ورفقته . ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ المسيحىّ ، وقد علمت أن فى كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى بلوهم بالأذى ليرجعوا عن إيمانهم . قال أبو السعود: والمرادبهم، إما أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين المطروحون فى الأخدود، وإما الذين بلوهم فى ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق. وهم داخلون فى جملتهم دخولًا أوليًّا «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ » أى عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ » أى عذابان منوّعان على الكفر وعلى الفتنة . أوهما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرها . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أى فى نشأتهم الأخرى « جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ » أى التام الذى لا فوز مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[١٣] (إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

[١٤] (وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ)

[١٥] (ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ)

[١٦] (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبوالسعود : استئناف خوطب به النبى ﷺ ، إيذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بعنف . وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى[1] (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) « إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ » أى يبدئ الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو فى كل يوم

(١) [١١ / هود / ١٠٢] .

يبدئ خلقاً من نبات وحيوان وغيرهما . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس فى اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ » أى لمن يرجع إليه بالتوبة « ٱلْوَدُودُ » أى المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو ٱلْعَرْشِ » أى الملك والسلطان أو السماء « ٱلْمَجِيدُ » أى العظيم فى ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته « فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ » أى لا يريد شيئاً إلا فعله . فلا يحول بينه وبين مراده شىء . فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض . ولذا تأثره بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ)

[١٨] (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

[١٩] (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ)

[٢٠] (وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ)

[٢١] (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ)

[٢٢] (فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ » أى الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير[1] : أى قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلى . ولا يثنينّك عن تبليغهم رسالتى . كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم ، إلى عطب وهلاك . كالذى كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة ـ كما قال أبو السعود ـ استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فعالا لما يريد) متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ » بدل من (الجنود) لأن المراد بفرعون هو وقومه، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى، مع وضوح آياته وظهور بيناته، عناداً وبغياً . والإضراب انتقالىّ للأشد، كأنه قيل ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك. فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم، لم ينزجروا . وفى جعلهم (فِى تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه ، مع ما فى تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شىء وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهربا . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخىّ لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه أنهماكهم ، وقوله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل فى أسلوبه وهدايته « فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير[1]: والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل فى لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .